مقررات معهد
المنهج الدراسي الميسر

رسالة شرعية عالمية
معهد المنهج الدراسي الميسر
من المستوى الأول إلى الثاني عشر

شرح
الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله تعالى

تأليف
أبي عبد الله محمد المصنعي
وفقه الله تعالى


رسالة شرعية عالمية
معهد المنهج الدراسي الميسر
من المستوى الأول إلى الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه،

أما بعد:

درسنا في هذه الدورة[١]: هو في كتاب "الوصية الصغرى" لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ومن المهم بمكان أن يتخلل الدروس العلمية شيءٌ من الدروس الوعظية والزهدية والتربوية؛ لأن ذلك يربي طالب العلم على الخير وعلى الزهد والورع والتقوى والآداب الحسنة، وقد كان هذا هدي السلف، يجمعون بين العلوم التأصيلية وكذلك بين العلوم المتعلقة بالزهد والرقائق والآداب.

وهذه الوصية الصغرى اشتملت على مواضيع متعددة منها:

ترجمة معاذ؛ ومنها التقوى؛ ومنها بيان حقوق الله عز وجل وحقوق خلقه، وجُلها شرح لحديث: (اتق الله حيث ما كنت)، وفيها بيان لأسباب التوبة، وكذلك بيان لمعنى التقوى؛ وأيضًا معنى اتباع السيئات الحسنات.

ثم بعد ذلك شرح معنى الخُلق والأخلاق؛ وذكر المفاضلة بين الأعمال، وفضل الذكر، وشيء من الكلام عن الكتب والكَسب إلى غير ذلك مما سنقرأه في كتابنا هذا.

ونسأل الله عز وجل العون والسداد.

---

(١) ألقيت في عام ١٤٤٣ هـ وقام أخونا الشيخ أحمد الفلسطيني وفقه الله تعالى بتفريغ الصوتيات، ثم أصلحتُ ما اقتضت الحاجة إصلاحه، والله الموفق.

وقد حظيت هذه الوصية بشروح كثيرة في عصرنا ومنها:

شرح للشيخ عبد الرزاق البدر، والشيخ محمد بن ابراهيم الحمد، كذلك الشيخ سليمان الرحيلي أيضًا له شرح، وشروح كثيرة جدًا ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى.

طريقتنا في الشرح أننا جعلنا الكتاب مقسَّمًا على واضيع متعددة؛ وجعلنا لكل وضوع عنوانًا يناسبه؛ ثم نذكر وقفات موضحة لكلام الشيخ رحمه الله تعالى.

****

(المقدمة)

[بسم الله الرحمن الرحيم

سُؤَالُ أَبِي الْقَاسِمِ بن يوسف بن محمد التَّجيبي الْمُغْرِبِيِّ:

يَتَفَضَّلُ سيدُنا الشَّيْخُ الفقيه الْإِمَامُ، الفاضل العالم بَقِيَّةُ السَّلَفِ، وَقُدْوَةُ الخَلَفِ، المبدع الْمُغْرِب، الْمُعرِب الْمُفصح، أَعْلَمُ مَنْ لَقِيت بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمُغْرِبِ؛ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ تَيْمِيَّة أبقى الله بركته:

بِأَنْ يُوصِيَنِي بِمَا يَكُونُ فِيهِ صَلَاحُ دِينِي وَدُنْيَايَ، وَيُرْشِدُنِي إلَى كِتَابٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُنَبِّهُنِي عَلَى أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ، وَيُبَيِّنُ لِي أَرْجَحَ الْمَكَاسِبِ، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى قَصْدِ الْإِيمَاءِ وَالِاخْتِصَارِ، وَاَللهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُ. وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ.

فَأَجَابَ شيخ الإسلام بحر العلوم رحمه الله ورضي عنه: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمَّا الْوَصِيَّةُ...

الشرح:

هذه المقدمة وفيها السؤال.

لنا حول هذه المقدمة ست وقفات:

الأولى: في الإشارة إلى ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية:

هو: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحَرَّاني، انتقل إلى دمشق وتربى فيها، وبرع من صغره فلم يبلغ العشرين حتى ذاع صيته وكثر علمه - ولذلك نحن ننصح أبناءنا الصغار أن يُقبلوا على العلم من صغرهم، فلا يدرك سن الشباب حتى يفتح الله جل وعلا عليه بخير كثير - وقد سمعت ما وصفه السائل فقال: (أعلم من لقيت في بلاد المشرق والمغرب)، وهذا قبل بلوغه الأربعين، وقد صار بعد ذلك بحرًا في جميع العلوم الشرعية، ونصر معتقد أهل السنة وجاهد المبتدعة بقلمه ولسانه، وجدد الله تعالى به الحق، حتى توفاه الله تعالى (ت ٧٢٨)، والله المستعان.

الثانية: ترجمة أبي القاسم:

هكذا في بعض التراجم مكتوب أبو القاسم بن يوسف، وفي بعضها القاسم بن يوسف، وهو القاسم بن يوسف بن علي التُّجيبي الكِندي، أصله من كندة حضرموت، لكن نزل بعض هذه القبيلة قديمًا في الأندلس في بَلَنْسية.

ولد في عام (٦٧٠) من الهجرة، وتوفي في عام (٧٣٠) للهجرة، خرج للحج بعد السبعمائة ولطلب العلم، فمر على المغرب وكذلك على مصر، وحج ومر على المدينة ثم أتى إلى دمشق فلقي فيها ابن تيمية رحمه الله تعالى، وأخذ من علمه ومن ذلك هذه الوصية.

والتُّجيبي له كتاب اسمه :"برنامج التُّجيبي" كتاب قيم، وله رحلة ذكر فيها ما وجد في رحلته إلى أن رجع.

الوقفة الثالثة: في أنواع السؤال وفائدته:

السائل الذي يسأل إما أن يسأل للاستفادة، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه سؤال طالب العلم، يسأل ليستفيد ويتفقه، وأيضًا سؤال لِيُعلِّم غيره؛ كما في حديث جبريل المشهور، وأيضًا سؤال للتعنت والتعجيز وهذا مذموم؛ والآثار في ذمه كثيرة، وسؤال رابع وهو للاختبار، يسأل الشخص للاختبار عند الانتهاء من دراسة كتاب أو لمعرفة مدى علمه وفائدته وفهمه وما أشبه ذلك، وهذا له حكم المقاصد.

الوقفة الرابعة: استحباب افتتاح الفتوى بالحمد أو بالبسملة.

ولذلك شيخ الإسلام لما بدأ قال: (الحمد لله رب العالمين أما الوصية)، فينبغي للشخص أن يبدأ كلامه بالحمد أو على الأقل بالبسملة وعلى هذا درج كثير من السلف في الأجوبة المطولة.

الوقفة الخامسة: في مدح العلماء وحكمه:

هذا الرجل السائل أثنى على شيخ الإسلام ثناءً طيبًا كثيرًا، ولا بأس بالثناء على العلماء الذين لا يخشى عليهم الفتنة، أو على الأقل لا بأس بالثناء حين تعلم أن هذا الثناء لا يُفتن به الممدوح

أو المثني عليه، وأما إذا ظننت أو تيقنت أنه يفتن فلا يجوز، وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سمعهم يمدحون شخصًا: (قطعتم ظهر الرجل) [(١)]، وفيه بيان خطر المدح إذا كان في غير محله.

وينبغي الثناء على العلماء لا سيما عند صغار الطلبة والعامة؛ وتجنب الألفاظ التي تقدح في مكانتهم لأن العلماء هم حملة الدين، وحملة الدين إذا أساء الناس الظن بهم تركوا دينهم.

الوقفة السادسة: في بعض الكلمات التي ذكرها في هذا السؤال:

مثل قوله: [المبدع المُغرب] المبدع يعني: الذي أتى بأمور كثيرة لم تكن عند أقرانه. والمغرب بمعنى المتفرد؛ تفرد بكثير من العلوم.

[المعرِب] يعني: من الإعراب هو البيان.

[المفصح] من الفصاحة.

وقوله: [أبقى الله بركته] أي: العلم والنفع به؛ فبركة العلم بالاستفادة منه وليس بالتمسح وتقبيل الركب.

وقوله: [على قصد الإيماء] الإيماء: الإشارة والاختصار.



(١) البخاري (٢٦٦٣) ومسلم (٣٠٠١) عن أبي موسى رضي الله عنه.

(الوصية بالتقوى)

[الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمَّا "الْوَصِيَّةُ" فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ الله وَرَسُولِهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾.

وَوَصَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذًا لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: (يَا مُعَاذُ: اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (١).]

الشرح:

لنا في هذا الكلام أربع وقفات:

الأولى: في معنى الوصية:

الوصية هي العهد والنصح عند الفراق، في حديث العرباض (أوصنا)، وفي بعض الروايات (بما تعهد الينا) (٢)؛ فالنصح عند الفراق يسمى وصية، وهكذا بذل المال عند الموت يسمى وصية لأن بعده فراق؛ والله المستعان.

إذًا فالمقصود هنا بالوصية النصيحة.

---

(١) حديث أبي ذر حسن لغيره، وفي سنده ميمون بن أبي شبيب ضعفه ابن معين وهو منقطع بينه وبين أبي ذر ومعاذ، لم يسمع منهما على الصحيح كما قاله أبو حاتم وغيره، وقد جاء من طرق عن ميمون مرسلاً ورجح الدارقطني إرساله. ولكن له شواهد عن أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما، وحسنه الألباني.

وكان شيخنا مقبل رحمه الله تعالى يضعف هذا الحديث وأما حديث معاذ فالذي ظهر لي أن ذكر معاذ في هذا الحديث شاذ، ثم رأيت الترمذي قد أشار إلى شذوذه فقال: قَالَ مَحْمُودٌ وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ. ومحمود هو شيخ الترمذي. والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢) وأحمد (١٧١٤٤) وغيرهم وصححه الشيخان الألباني والوادعي.

الوقفة الثانية : في بيان أن كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أنفع الكلام :

فما ورد في النصح والوصايا في كتاب الله عز وجل هي أنفع النصائح لمن تدبرها وتأملها؛ ولا يتم الانتفاع بكلام الله عز وجل وبكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه الأكمل إلا بأمرين اثنين احفظهما:

الأول: الفهم الصحيح. الثاني: العمل بهما مع الإخلاص والاتباع.

الوقفة الثالثة : في معنى التقوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ هي وصية الله لجميع الأمم ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وفي الحديث (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت) .

التقوى: هي العمل بالكتاب والسنة، فإذا ذكر البر والتقوى معًا فالبر المسارعة إلى الطاعات والتقوى اجتناب المنهيات، وهكذا كثير من ألفاظ الشرع عند ما تجتمع تفترق في معانيها، وإذا افترقت دلت على غيرها، فالتقوى هي الدين كله.

الوقفة الرابعة : رأس التقوى التوحيد والاتباع :

رأس التقوى وأساس التقوى هو التوحيد والاتباع؛ فإذا رأيت الشخص يظهر من السكينة والوقار الورع والخوف من الله سبحانه وتعالى مع إخلاله بالتوحيد أو مع إخلاله بالاتباع فإن ذلك يدل على ضعف التقوى عنده،

وحديث: (يَا مُعَاذُ: اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت) سيأتي شرحه بإذن الله ﷻ بعد قليل.

****

(ترجمة معاذ)

قال: [وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: (يَا مُعَاذُ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ) [١].

وَرُوِيَ فِيهِ: (أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ)[٢] (وَأَنَّهُ يُحْشَرُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ)[٣] أَيْ بِخُطْوَةٍ.

وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغًا عَنْهُ دَاعِيًا وَمُفَقِّهًا وَمُفْتِيًا وَحَاكِمًا إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ[٤].

وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِبْرَاهِيمُ إِمَامُ النَّاسِ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[٥]؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِإِبْرَاهِيمَ.]

الشرح:

لنا في هذا الكلام خمس وقفات

الأولى: في ذكر معاذ رضي الله عنه:

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومعاذ في سن الطفولة قبل البلوغ بسنوات؛ لكن أقبل على حفظ القرآن فأكمله؛ وكذلك أقبل على حفظ السنة والتفقه فيها فبلغ درجة عظيمة،

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) وغيره وصححه الألباني والوادعي.

(٢) رواه الترمذي (٤١٢٥) وابن ماجه (١٥٢) وغيرهما وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد (٣٧٥) وغيره عن ابن عمر وصححه الأرنؤوط.

(٤) البخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عند آية النحل، وسنده صحيح.

كما ذكرنا قبل أن الصبي حين يقبل على العلم بجدية لا يصل بداية النضوج إلا وقد صار عنده علم غزير.

فمعاذ رضي الله عنه أقبل على العلم من صغره حتى بلغ رتبة عظيم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان عند موت النبي عليه الصلاة والسلام قد تجاوز سن العشرين بقليل.

الوقفة الثانية : في معنى حديث المحبة.

والنبي عليه الصلاة والسلام قال له: (يا معاذ والله اني لأحبك) فأجابه معاذ: (وأنا والله يا رسول الله لأحبك) المحبة في الله ﷻ أوثق عرى الإيمان؛ وسببها الطاعة لا المعرفة ولا التوافق في الطِباع.

وهذا الحديث مروي بالإسناد؛ قد تناقله العلماء بهذا اللفظ (والله اني لأحبك) تقول لمن يروي عنك: (والله إني لأحبك) ثم تروي له الحديث بسندك إلى النبي ﷺ.

الوقفة الثالثة : في سُمعة العلماء.

ينبغي أن يُحافظ على مكانة علماء السنة وسمعتهم؛ وبيان ما عندهم من الخير والعلم، انظر هذا الثناء العظيم لابن مسعود على معاذ لم يكن بينهم تحاسد وما أشبه ذلك، بل يُكَمِّلوا بعضهم بعضًا، ويدل بعضهم على بعض، وعلى هذا كان السلف، إلا أن يكون العالم الفلاني من المبتدعة فيحذر منه، لكن مع ذلك لا ينبغي الاستعجال في التبديع؛ بل يحرص على النصح والرفق حتى يعذر الشخص أمام الله ﷻ، حين يتكلم في هذا المخالف، فينبغي النصح والحرص على عودة الناس إلى المنهج الصافي قدر الإمكان.

والقدح والتجريح إنّما هو علاج يوضع على المرض في وقت الحاجة وبقدرها؛ ولا يترك بالكلية كما يقول بعض المميعين؛ ولكن لا يبالغ فيه كما صار هذا شعارًا لبعض الناس المشبوهين، تحت مسمى الجرح والتعديل اتخذوها فرصة للطعن في علماء السنة.

الوقفة الرابعة: في مفردات هذا الكلام.

فقوله: (كان يردفه وراءه) أي: يركبه وراءه على الحمار مثلًا أو على البعير.

[برتوة] فسرها الشيخ بقوله بخطوة.

وأيضًا أثر ابن مسعود (أن معاذ كان أمة) أمة بمعنى إمام، و(قانتًا) يعني: عابدًا ومعلمًا للخير، و(حنيفًا) معناه: موحدًا؛ الحنيف هو الموحد المتبرئ من الشرك وأهله، وهو أعم مما يفسره بعضهم بقولهم: الحنيف المائل.



(شرح حديث معاذ)

قال: [ثُمَّ إِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّاهُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ.

وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

أَمَا بَيَانُ جَمْعِهَا فَلِأَنَّ الْعَبْدَ عَلَيْهِ حَقَّانِ:

حَقٌّ لله عَزَّ وَجَلَّ. وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ. ثُمَّ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لله لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا: إمَّا بِتَرْكِ مَأْمُورٍ بِهِ أَوْ فِعْلِ مَنْهِيٍّ عَنْهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت) وَهَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ وَفِي قَوْلِهِ (حَيْثُمَا كُنْت) تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إلَى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ.

ثُمَّ قَالَ: (وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا) فَإِنَّ الطَّبِيبَ متى تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ. وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ. فَالْكَيِّسُ هُوَ الَّذِي لَا يَزَالُ يَأْتِي مِنْ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ. وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ " السَّيِّئَةَ " وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا لَا فِعْلُ الْحَسَنَةِ فَصَارَ كَقَوْلِهِ فِي بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ: (صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ)[1]. وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ.

وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ: (أَحَدُهَا) التَّوْبَةُ[2].]

الشرح:

لنا في هذا الكلام خمس وقفات

الأولى: في قوله: (اتق الله حيثما كنت).

هذه قاعدة في المراقبة، ولذلك ذكره النووي رحمه الله تعالى في الأربعين في قواعد الإسلام؛ فهو قاعدة في حق الله ﷻ؛ وقاعدة في حق المخلوق؛ وهو أيضًا قاعدة في المراقبة.

---

(١) البخاري (٢٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه.

(٢) هذه الجملة ستكون عند قوله: [وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ].

إذًا قوله: (اتق الله حيثما كنت) قاعدة في المراقبة في السر والعلن والسفر والحضر؛ ومن بلغ هذه الرتبة فقد بلغ مرتبة الإحسان: أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله جل وعلا يراه.

الوقفة الثانية: في كمال التقوى:

التقوى، كل مؤمن موحد عنده تقوى، لكن هذه التقوى مراتب؛ منهم من يبلغ الكمال فيصير كما في الحديث (اتق الله حيثما كنت)، وفي رأس ذلك أن يكون من أهل التوحيد والاتباع، ومنهم من يكون عنده قصور في التقوى في بعض الجوانب، ومنهم من تكون عندهم تقوى ضعيفة، فالكلام على التقوى كالكلام على الإيمان تزيد وتنقص، لأن التقوى من الإيمان، فكمالها كما سمعت أن يعني يكون متقيًا في السر والعلن؛ في حق الله عز وجل وفي حق خلقه.

الوقفة الثالثة: في كيفية التعامل مع السيئات.

السيئات لا يكاد يخلو منها أحد ممن لم يعصمه الله ﷻ، فلذلك ينبغي التعامل مع السيئات بثلاثة أمور:

الأول: بالبعد عنها، وهذا هو الأصل ابتعد عن السيئات قدر الإمكان كما قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

الثاني: حين يضطر الشخص إلى القرب من السيئات لسبب أو لآخر فليحذر كل الحذر من فعلها.

الثالث: إذا استزله الشيطان ووقع في السيئات فليكرهها ولا يحب هذه السيئات ولا يجاهر بها ولا يدعو إليها؛ بل عليه أن يبادر إلى التوبة؛ إلى الاستغفار؛ إلى الحسنات الماحية التي سيأتي ذكرها؛ (واتبع الحسنة تمحها).

الوقفة الرابعة: في معنى الحسنات والسيئات.

وسيأتي من كلام الشيخ؛ والحسنات سميت حسنة من حسنها وجمالها، ومن حسن أثرها في الدنيا وأثرها في الآخرة، والسيئات سميت سيئات من سوئها وخبثها، وأيضًا من سوء أثرها في الدنيا وكذلك في الآخرة. سيأتي مزيد بيان من كلام الشيخ.

الوقفة الخامسة في معنى قوله: (قدم لفظة سيئة وان كانت مفعولاً).

يعني مفعولة في المعنى والحسنة فاعلة في المعنى؛ لأن الحسنة هي التي تمحو السيئة؛ وصارت السيئة مفعولة أي: مفعول به كما يقول النحاة؛ هذا هو المعنى، يعني كان حقها لو أخذنا بتقديم الأول فالأول أن نقول: وأتبع الحسنة السيئة تمحها.

لكن لأن الغرض من الحسنة هو محو السيئة قدمت السيئة لأنها ممحوه، والماحي يكون بعدها وهو الحسنة. هذا معنى قوله: (لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة)، يعني هل المقصود من فعل الحسنة طلب الدرجات أو محو السيئة؛ هذه الحسنات التي تعمل بعد السيئات، المقصود منها محو السيئة فصار محو السيئة مقدم في القصد على الدرجات التي تكون على فعل الحسنات؛ فلأجل هذا القصد قدمت في اللفظ أيضًا، كما يقول النحاة تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر أو يفيد الاهتمام إلى آخره.

أما في الإعراب: فالسيئة مفعول أول والحسنة مفعول ثاني؛ لكن في المعنى الحسنة فاعل والسيئة مفعول؛ لأن الحسنة هي التي تمحو السيئة ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

فقوله: (فصار كقوله في بول الإعرابي صبوا عليه ذنوبًا من ماء)،

أصل الكلام: (صبوا ذنوبًا من ماء عليه)؛ ولكن قدم الجار المجرور هنا لماذا؟

للتنبيه على أن المقصود من صب الماء هو إزالة النجاسة وليس المقصود من صب الماء بلُّ الأرض مثلًا أو غير ذلك.

هذا كله إشارة إلى ماذا؟ إشارة إلى الاهتمام بالحسنات الماحية ؛ أن يكون هم الشخص إن وقع في ذنب أن يبادر إلى الحسنات الماحية؛ ومن أهم الحسنات الماحية ما كان من جنس السيئات؛ مثال ذلك شخص سرق، جنسها أن يرد الحق وأن يبذل من ماله شيئًا للصدقة.

فنسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد، والله المستعان.



(أسباب المغفرة)

قال: [وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ (أَحَدُهَا) التَّوْبَةُ. وَ(الثَّانِي) الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ. فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ فَإِذَا اجْتَمَعَتْ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ الْكَمَالُ.

(الثَّالِثُ) الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُكَفِّرَةُ:

أَمَّا " الْكَفَّارَاتُ الْمُقَدَّرَةُ " كَمَا يُكَفِّرُ الْمُجَامِعُ فِي رَمَضَانَ وَالْمُظَاهِرُ وَالْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ أَوْ تَارِكُ بَعْضِ وَاجِبَاتِهِ أَوْ قَاتِلُ الصَّيْدِ بِالْكَفَّارَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَهِيَ " أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ " هَدْيٍ وَعِتْقٍ وَصَدَقَةٍ وَصِيَامٍ. وَأَمَّا " الْكَفَّارَاتُ الْمُطْلَقَةُ " كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لِعُمَرِ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ؛ يُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمْعَةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا وَعَمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِنْ السُّنَنِ خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ.]

الشرح:

قال رحمه الله تعالى: [وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ].

يعني: أثر الذنب، وأثر الذنب هو العقاب المترتب على فعله.

هذه الجمل لنا معها أربع وقفات.

الوقفة الأولى: في التوبة.

والتوبة هي: الاقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على عدم الرجوع إليه.

والتوبة تَجّبُّ كل ذنب إذا كانت صادقة ونصوحة، والنصوح هي التوبة التي لا عودة فيها إلى الذنب، فإذا تاب الإنسان بصدق وعزم صادق على عدم العودة إلى الذنب غفر له ولو كان الذنب من كبائر الذنوب، إلا أن يتعلق بحق مخلوق فلا بد مع ذلك من رد المظالم.

والتوبة هي أعظم الماحيات للذنوب وأوسعها.

الوقفة الثانية في الاستغفار: وهو طلب المغفرة بالدعاء.

حين يقول المسلم: أستغفر الله، أو اللهم اغفر لي. فهو يطلب التوبة بهذا الدعاء، وقد يغفر للشخص بالاستغفار مع الندم إذا عمل الذنب وندم على فعله واستغفر الله سبحانه وتعالى فإنه قد يُغفر للعبد بذلك.

وليس المقصود أن يستغفر مع عزمه على العود، فإن هذا الاستغفار شبه لغو لا ينفع صاحبه، إنّما ينفع الاستغفار مع الندم حتى ولو كان يعلم أنه سيعود إليها بسبب دوافع النفس، فيستغفر ويجاهد نفسه والله جل وعلا غفور رحيم.

الوقفة الثالثة: مع الأعمال المكفرة.

وقد عدها الشيخ في موضع آخر إلى عشرة، وذكرها ابن القيم وشرحها، ونقلها أيضًا شارح الطحاوية، ومن أجلّها ما تقدم ذكره وأيضًا الأعمال المكفرة، سواء الكفارات المقدرة فإن هذه الكفارات المقدرة تكفر هذه المحظورات التي وقع فيها ولا كفارة لها بغيرها، فالمجامع في رمضان الكفارة المحددة له هي المذكورة في كفارة المجامع، لا يكفي في ذلك التوبة ولا الاستغفار لابد أن يأتي بالكفارة التي حددت لهذا الذنب، وهكذا المظاهر، وهكذا بقية الأخطاء والذنوب التي حددت لها كفارات معينة، فمن أتى هذه الكفارات فقد أتى بما يمحو هذه الذنوب؛ مع التوبة منها.

وأما الكفارات المطلقة وهي ما يحصل للإنسان من أعمال صالحة وجميع الأعمال الصالحة فيها كفارات للذنوب، سواء ما ورد التنصيص عليه كحديث (من صام رمضان غفر له ما تقدم من ذنبه) [1]. مثلًا؛ أو الأعمال التي لم يرد فيها الفضل مثل هذا، فجميع الأعمال الصالحة تكفر الذنوب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

---

(١) البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الوقفة الرابعة: في التكفير بالمصائب.

والمصائب كفارات، وهي كل ما يؤذي من هَم أو حزن أو أذى في بدن الإنسان أو ماله أو أهله وما أشبه ذلك، وسيأتي ذكرها من كلام الشيخ، (ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله بها من خطاياه) [(١)].

****

(١) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(أهمية عناية العبد بحق الله عز وجل وحق الخلق)

قال رحمه الله تعالى: [وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهَذَا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ؛ خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ فَكَيْفَ بِغَيْرِ هَذَا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟)(١) هَذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ. وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ مِنْ الْخَاصَّةِ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عُيَيْنَةَ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدْ أُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَى قَدْ أُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ وَكَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ وَطَرِيقَ الْأُمَّتَيْنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَيَرَى أَنْ قَدْ أُبْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ]

الشرح:

وهذا الكلام لنا معه سبع وقفات

---

(١) البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

الأولى: في أهمية فهم هذه القاعدة العظيمة.

وهي العناية بالتقوى وباتباع الحسنات السيئات وهذا يتعلق بحق الله عز وجل وهكذا أيضًا العناية بحق الخلق، هذا من أهم الأمور.

فمن المهم الاعتناء بالأعمال الصالحة وأيضًا بالأعمال التي تمحو السيئات، فالإنسان يتقلب بين حسنة يعملها فهذه يحتاج فيها إلى إخلاص واتباع، وبين سيئة يرتكبها وهذه يحتاج فيها إلى توبة واستغفار، وهذا أعظم ما ينبغي للمسلم أن يعتني به، فإن فوزه وفلاحه في الدنيا والآخرة بهذين.

الوقفة الثانية : في معنى الجاهلية.

الجاهلية، هي: ما قبل الإسلام. وسبب ذلك هو جهلهم بالله عز وجل وبحقوقه، حتى وقعوا في كثير من الأمور الشركية التي أشركوا مع الله سبحانه وتعالى غيره، ولا يجوز إطلاق الجاهلية على المجتمع المسلم مهما وجد فيهم من معاصي، لكن قد توجد الجاهلية من باب بعض الوجوه كما قيدها الشيخ رحمه الله تعالى، فهناك بعض مسائل وبعض الأمور يقع فيها بعض المسلمين تشبه ما كان عليه أهل الجاهلية، مثل النياحة، الفخر بالآباء، العصبيات، الحزبيات، الخروج على ولاة الأمر.

وأعظم من ذلك ما يوجد عند بعض مدعي الإسلام من الشرك عند القبور كل هذه من أعمال الجاهلية، فقد يوجد في طلبة العلم من عنده شيء من هذه التعصبات، أو من هذه المعاصي التي كانت عند أهل الجاهلية كما في الحديث (أربع من أمر الجاهلية في أمتي لا يدعهن) وذكر منها (النياحة) [1].

وهذا يحصل من العامة ويحصل من بعض الطلبة بخلاف أهل العلم فإنهم على خير وعلى

(١) رواه مسلم (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

استقامة عظيمة، – بارك الله تعالى فيكم.

الوقفة الرابعة: في معنى حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(لتتبعن سنن من كان قبلكم) يعني: ما هم عليه من البدع في الدين.

(حذو القذة بالقذة) يعني سواء بالسواء، وهذا اللفظ ليس في الصحيحين ولا في السنن، هو عند أحمد[(١)] وسنده ضعيف، وأيضًا ليس من حديث أبي سعيد، الذي في حديث أبي سعيد (ذراعًا بذراع وشبرًا بشبر) ويقال: إن أول من أدخل هذه اللفظ في الحديث هو شيخ الإسلام.

(حتى لو دخلوا جحر ضب) وهو الحيوان المعروف (لدخلتموه) مع ما لهذا البيت الذي هو بيت الضب من اعوجاج وصعوبة، إلا أن بعض الناس يتكلف المشقة من أجل أن يقلد أعداء الإسلام.

الوقفة الخامسة: في بيان قاعدة وهي (التشبه بالمشركين أصل الشرك والشرور).

ولهذا ورد ذم الجاهلية وذم جميع الأعمال الموافقة لأهل الجاهلين في أعمالهم المختص بهم، فإذا ذكرت الجاهلية فالمقصود بذلك الذم، كحديث (من قتل تحت راية علمية فقد مات ميتة جاهلية) [(٢)] هذا من باب الذم وهكذا ما يذكر فيه تشبه باليهود والنصارى فإنَّما يقصد به الذم كحديث (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم المساجد) [(٣)] وهكذا بقية المشركين.

التشبه بالمشركين أصل الشرك، كما حصل بعد قوم نوح فإن كل من أشرك من الأمم التي جاءت بعد قوم نوح كان شركهم بسبب التشبه بالمشركين، تشبهوا بما كان عند قوم نوح من تصوير الصالحين وتعظيمهم والبناء عليهم ، ولا يزال الناس يتشبهون بالمشركين في زمانهم وفي غير زمانهم حتى يقعوا في شرور كثيرة ومنها الشرك بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٣٥) عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٥٠) عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إذًا التشبه بالمشركين أصل الشرك والشر، كما أن التشبه بالأنبياء والرسل أصل الخير والفوز والفلاح.

الوقفة السادسة: في بيان معنى قول شيخ الإسلام: وهذا أمر قد يجري في المنتسبين إلى الدين من الخاصة.

يعني بقوله: (من الخاصة) من طلبة العلم وما أشبه ذلك، وقد تقدم بيانه وأنه قد توجد بعض الخصال التي هي من خصال الجاهلية كالتعصبات مثلًا والتمرد على ولاة الأمر، قد يوجد هذا من بعض المنتسبين للعلم لا سيما الذين يتعلمون على أيدي أهل البدع، وكما قال سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا ففيه شبه باليهود ومن فسد من عبادنا ففيه هم للنصارى) وهذا الأثر سنده صحيح، وهو في معنى قول الله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

الوقفة السابعة: في أهمية العمل للعلم.

فإن الشخص إذا علم ولم يعمل تشبه باليهود، وإذا عمل بتقليد أعمى بدون علم فقد تشبه بالنصارى، وهذا مما يبتلى به بعض المنتسبين إلى الدين إما أن يتعلم ويقل عمله، وإما أن يقلد كما هو حال المقلدة في المذاهب وفي غيرها، يقلد حتى من الأمور التي لا يجوز التقليد فيها.

(هتف العلم بالعمل فإن أجابه والا ارتحل) ليكن همك أن تعمل بالعلم لا يكن همك أن يقال علم، حفظ كذا، اهتم للعمل بالإخلاص بالتوحيد باتباع السنة ، الأعمال إذا وفق الشخص فيها لاتباع السنة فقد وفق لخير كثير ولو قَل.

الوقفة الأخيرة في قوله: [فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَاتِ، وَهُوَ إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ...]

لابد للشخص أن يكون حريصًا على أن يتبع السيئة الحسنة، وهذا لا يكفي النية والإخلاص؛ بل لا بد للعبد أن يتفقه مع ذلك في كيفية إتيان الحسنات وفي كيفية محو السيئات.

****

(الأخلاق)

قال رحمه الله تعالى: [فَلَمَّا قَضى بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ الله: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ قَالَ: " وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ " وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ. وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك بِالسَّلَامِ وَالْإِكْرَامِ وَالدُّعَاءِ لَهُ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالزِّيَارَةِ لَهُ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَك مِنْ التَّعْلِيمِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالْمَالِ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَك فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ. وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ. وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)[١] وَحَقِيقَتُهُ الْمُبَادَرَةُ إلَى امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ.

وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ الله فَهُوَ أَنَّ اسْمَ تَقْوَى الله يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا وَمَا نَهَى عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا وَهَذَا يَجْمَعُ حُقُوقَ الله وَحُقُوقَ الْعِبَادِ. لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يَعْنِي بِالتَّقْوَى خَشْيَةَ الْعَذَابِ الْمُقْتَضِيَةَ لِلِانْكِفَافِ عَنْ الْمَحَارِمِ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ[٢] وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٣] وَصَحَّحَهُ: (قِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: تَقْوَى الله وَحُسْنُ الْخُلُقِ. قِيلَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قَالَ: الْأَجْوَفَانِ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ).

وَفِي الصَّحِيحِ[٤] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) رواه أحمد (٢٤٦٠١) وسنده صحيح.

(٢) لعله يعني حديث (وهل يكب الناس على مناخرهم...) رواه الترمذي (٢٨٠٤) وغيره وصححه الألباني وغيره.

(٣) رواه الترمذي (٢١٢٢) وابن ماجه (٤٢٤٦) وصححه الألباني.

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره وصححه الألباني والأرنؤوط.

(أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ كُلَّهُ تَقْوَى اللهِ.]

الشرح:

ولنا مع هذه الجمل ثلاث وقفات على وجه الاختصار

الأولى: في معنى حسن الخلق.

حسن الخلق يشمل أمرين اثنين بالنسبة لمعاملة الخلق من جهتك، يشمل: بذل الندى والمعروف وكف الأذى. وأيضًا فيما يتعلق بالآخرين: الصبر على أذاهم ورد كثيرًا من ذلك بالإحسان.

من بلغ هذه الرتبة فقد بلغ رتبة عظيمة.

ومِن الصبر على أذى الآخرين ورد ذلك بالإحسان أن تصل من قطعك بالسلام عليه، والإكرام والدعاء، والغالب على الشخص أنه إذا أوذي من قبل شخص آخر حتى ولو سلم عليه قد يدعو عليه، قد يذمه، أو يمتنع من مجالسته مثلًا.

أمّا من بلغ في الدرجة والرتبة أن يدعو لمن أساء إليه ولو بالهداية، وإذا هداه الله تعالى فسيترك الشر، فالله المستعان.

فكثير من الناس من جهة نفسه يبذل الخير، لكن لا يتحمل أذى الآخرين ولا يعفو ويصفح، هذه الأمور لا يبلغها إلا ذو حظ عظيم.

الوقفة الثانية: حسن الخلق عند الاطلاق يعم حق الله سبحانه وتعالى وحق خلقه.

وهكذا التقوى عند الاطلاق تشمل حق الله سبحانه وتعالى وحق خلقه، فكثير من الألفاظ الشرعية إذا أطلقت تشمل الدين كله، وإذا قرنت بغيرها فإنها تعني بعض ذلك، فإذا جُمع بين التقوى وحسن الخلق، فيراد بالتقوى حق الله ﷻ، ويراد بحسن الخُلق حق الخَلق.

الوقفة الثالثة: في معنى الأحاديث التي ذكرها الشيخ.

قول عائشة رضي الله عنها (كان خلقه القرآن) يعني كانت أعماله ومعاملاته تطبيقًا للقرآن

الكريم.

وهكذا حديث أبي هريرة (ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق) وتفسره بها تقدم ذكره. (وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: أن الجوفان الفم والفرج)، الفم والفرج ليست كل ما يدخل، لكنها من أعظم ما يدخل الناس النار الفم والفرج، والفم أخطرهما، فإن كثيرًا من الناس يتورع عن كثير من الذنوب المتعلقة بالجوارح، لكن اللسان هذا ربما يبقى ممارسًا لكثير من الأمراض كالغيبة وغيرها.

الحديث الذي بعده عن عبد الله بن عمر (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا) دليل على أن الأخلاق من الإيمان، وهذا الحديث يعني بالأخلاق الدين كله.

ونسأل الله سبحانه أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى.

****

(أصول التقوى)

قال رحمه الله تعالى: [وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَى وَفُرُوعِهَا لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ فَإِنَّهَا الدِّينُ كُلُّهُ؛ لَكِنَّ يَنْبُوعَ الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ: إخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ انْتِفَاعًا بِهِمْ أَوْ عَمَلًا لِأَجْلِهِمْ وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ تَعَالَى وَذَلِكَ بِمُلَازَمَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْ فَاقَةٍ وَحَاجَةٍ وَمَخَافَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ

وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ. وَمَنْ أَحْكَمَ هَذَا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ.]

الشرح:

لنا مع هذه الجمل ست وقفات.

الوقفة الأولى: من أعظم أصول التقوى وأصول الدين الإخلاص.

الإخلاص لله عز وجل والاستعانة به، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وهذا هو الإخلاص ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذه هي الاستعانة، فلا قدرة للعبد على الإخلاص ولا على الاتباع ولا على العبادات، ولا يقدر أن يؤدي حق الله عز وجل ولا حق عباده إلا أن يكون بعون الله سبحانه وتعالى، فلابد للعبد أن يستعين بالله عز وجل قبل كل عبادة وقبل كل عمل، ثم بعد ذلك يدعو الله سبحانه وتعالى بالقبول.

فهذه أربعة أشياء لا تقوم الأعمال إلا بها ولا تتم التقوى إلا بها،

أولًا: الاستعانة بالله تعالى، ثانيًا: الإخلاص، ثالثًا: الاتباع، رابعًا :الدعاء بالقبول.

الوقفة الثانية: في بيان الأصل الثاني من أصول التقوى وهو التوكل.

والتوكل منه الأخذ بالأسباب ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أقبل على عبادة الله عز وجل أمرًا وتركًا للنهي فهذه هي التقوى، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ لا تصح التقوى إلا بالتوكل على الله سبحانه

وتعالى، إذا لم يتعلق القلب بالله عز وجل فأي تقوى يحملها، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾.

الوقفة الثالثة : من أصول التقوى التوبة والإنابة.

لأن التقوى على قسمين:

الأول: فعل المأمور وترك المحظور، لكن بما أن الذنب لا بد أن يقع من هذا العبد إلا من عصم الله سبحانه، فإنه بحاجة إلى أن يتدارك ذلك بالتوبة ، فصارت التوبة من أصول التقوى، فمن لا توبة له لا تقوى له، ومن زعم أنه تقي لله عز وجل ولا يذنب قط فقد ادَّعى المستحيل، (كل بني آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون) نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم.

الوقفة الرابعة : في الشكر.

التقوى هي العبادة، وهذه العبادة فضل الله جل وعلا ومنته، وهذا الفضل يحتاج إلى شكر، فمن اتقى الله عز وجل وجب عليه أن يشكر الله سبحانه وتعالى على نعمة التقوى، فصار الشكر من أصول التقوى، فما من مؤمن صالح خير يقبل على الله سبحانه وتعالى إلا وجدته كثير الشكر، يشكر الله جل وعلا كثيرًا على توفيقه وامتنانه وهدايته، قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ انظر كيف قرنت العبادة بالاستعانة وبالتوكل وبالإنابة وبالشكر .

الوقفة الخامسة : في قطع العلائق من المخلوقين وتعلق القلب بالله تعالى.

أمَّا من جهة العبادة فهذا أمر واضح، فإن تعلقَ القلب في العبادات بغير الله عز وجل يفسد العبادة، وهو الرياء السمعة (أنا اغنى الشركاء عن الشرك من عمل أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) [(١)] كما أن قطع العلائق في أمور الدنيا للمخلوقين من الأمور العظيمة التي هي من ثمرات حسن الظن بالله عز وجل، ومن ثمرات التقوى، ومن عظيم علاقة العبد بربه

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سبحانه.

اجعل تعلقك بالأعمال الدنيوية وهكذا بالمعاملات مع الآخرين مجرد أسباب تتعاطاها ببدنك لا تجعلها في قلبك، كما سيأتي من كلام الشيخ أن تجعلها كالخلاء لوقت الحاجة فقط، وهذه منزلة لا يصلها إلا من عظم إيمانه وتأصلت فيه التقوى، وتثبت فيه التوكل على الله سبحانه وتعالى، قد وجد من السلف من كان لا يأخذ من الناس شيئًا كالإمام أحمد رحمه الله تعالى.

الوقفة السادسة والأخيرة : في ملازمة الدعاء.

الدعاء مفتاح كل خير فمن وُفِّق للإقبال على الله سبحانه وتعالى بالدعاء في كل أحواله وأسبابه وأعماله وأيضًا في رخائه وشدته فقد وفق لخير كثير، ﴿ قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ والله جل وعلا يحب العبد الذي يدعوه كثيرًا.



(تنوع الأعمال الصالحة)

قال:[وَأَمَّا مَا سَأَلْت عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ.

فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ لَكِنْ مِمَّا هُوَ كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاَللَّهِ وَأَمْرِهِ: أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللَّهِ دَائِمًا هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ وَعَلَى ذَلِكَ دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١): (سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ).

وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد(٢) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ).

وَالدَّلَائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ. وَأَقَلُّ ذَلِكَ أَنْ يُلَازِمَ الْعَبْدُ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجَعِ وَعِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنْ الْمَنَامِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ مِثْلُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ وَالْجِمَاعِ وَدُخُولِ الْمَنْزِلِ وَالْمَسْجِدِ وَالْخَلَاءِ وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ وَعِنْدَ الْمَطَرِ وَالرَّعْدِ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمُسَمَّاةُ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. ثُمَّ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا وَأَفْضَلُهُ " لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ".

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٢١٧٠٢) وابن ماجه (٣٧٩٠)، والترمذي (٣٣٧٧) وغيرهم وصححه الألباني والوادعي.

وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: " سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ " أَفْضَلُ مِنْهُ.]

الشرح:

هذه الجمل التي ذكرها لنا معها خمس وقفات.

الوقفة الأولى: في تنوع الأعمال وتفاضلها.

الناظر في أجوبة النبي صلى الله عليه وسلم يجد أنه سئل أسئلة كثيرة وكان يجيب بأجوبة مختلفة، قال أهل العلم: سبب ذلك أنه كان يجيب كل شخص بما يناسبه، فمن رأى عنده إقبالًا على الزهد دله على أفضل طريقة للزهد، وآخر عنده إقبال على العبادة كذلك يدله على أفضل طريقة في العبادة ،وآخر في الصلاة وآخر في الجهاد وآخر في الصيام، كلٌ يُنصح من الأعمال الصالحة بما يناسبه، مع أن الفرائض أمرٌ حتم على كل الناس، لكن المقصود الاستكثار من النوافل في بعض هذه الأعمال.

كل واحد يقبل على ما فتح جل وعلا عليه ، شخص فتح له باب الصيام وآخر فتح له باب القيام، وآخر باب الصدقة، فمن فتح له باب خير وسهل عليه فليستكثر منه.

الوقفة الثانية: في فضل الذكر ونفعه.

الذكر له ثمرة عظيمة على القلب والبدن والعقل والفهم، كلما كان العبد أكثر ذكر لله عز وجل كان أفضل حالًا ممن هو دونه في الذكر، فليستكثر العبد فإن ذكر الله جل وعلا سهل، وإذا جاهدت نفسك مدة من الزمن سهل عليك وصرت لا ترتاح إلا بذكر الله عز وجل، ومن جرب هذا وجد ما ذكرناه.

الوقفة الثالثة: في قوله: العلماء بالله وأمره.

هم علماء الكتاب والسنة، أقبلوا على الأمور المتعلقة بالقلب وصلاح القلب، وهذا هو العلم بالله سبحانه وتعالى، ويشمل الخوف والخشية والمراقبة.

وكلما كان الإنسان أعرف بالله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله وكان أعظم إيمانًا بذلك كان

أعلم بالله عز وجل وأعظم له خشية، وأيضًا العلماء بأمره يعني بشرعه، وهذا هو حال علماء الإسلام تجد عندهم من الخشية والخوف والمراقبة والذكر والورع، وتجدهم من أهل التبحر في العلم.

وبعض الناس يقبل على الزهد وما يتعلق بالقلوب ولا يعتني بالعلم الشرعي فربما يفسد فسادًا عظيمًا، كما هو حال كثير من الصوفية، يدعون أنهم مقبلون على العلم بالله عز وجل دون أن يلتفتوا إلى علم الشريعة فيحصل لهم من الضلال ما هو مشهور .

الوقفة الرابعة : في بيان متى يصير الإنسان كثير الذكر.

معلوم أن النبي عليه الصلاة والسلام أوصى الرجل بماذا؟ لقوله: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) [(١)] وهذا هو أرفع درجات الذكر، ومن حافظ على الأذكار المشروعة فقد ذكر الله سبحانه وتعالى كثيرًا.

أذكار الصباح والمساء، أذكار النوم، أذكار الدخول، أذكار الخروج، ونحوها من أذكار اليوم والليلة، هذه الأذكار التي ذكرها الشيخ وغيرها من حافظ عليها فهو من الذاكرين الله كثيرًا، فمن زاد على ذلك فقد بلغ رتبة علية.

الوقفة الخامسة : في قوله : (وأفضل الذكر لا إله إلا الله).

وهذا بالنسبة للذكر المطلق، أمَّا بالنسبة للذكر المقيد بوقت أو عند عمل فالتقيد بالذكر الذي ورد أفضل من غيره، مثلًا عند أن يؤذن المؤذن ترديد الأذان أفضل من تكرار لا إله إلا الله، وأفضل من قراءة القرآن، وهكذا قل في بقية الأذكار، ما كان في وقته فهو أفضل من غيره .

****

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٥) وابن ماجه (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

(العلم وبيان أنواع أخرى من العلوم)

قال: [ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

وَلِهَذَا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ أَوْ يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا فَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ. وَعَلَى ذَلِكَ إذَا تَدَبَّرْت لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِمْ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلَافٍ. وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْعَبْدِ فَعَلَيْهِ بِالِاسْتِخَارَةِ الْمَشْرُوعَةِ فَمَا نَدِمَ مَنْ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالَى. وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَلَا يُعَجِّلُ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْت فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي وَلْيَتَحَرَّ الْأَوْقَاتَ الْفَاضِلَةَ: كَآخِرِ اللَّيْلِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ وَعِنْدَ الْأَذَانِ وَوَقْتَ نُزُولِ الْمَطَرِ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ: فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ.]

الشرح:

لنا مع هذه الجمل خمس وقفات

الأولى: في أفضل حالات الذكر.

أفضل حالات الذكر ما اجتمع فيه ذكر اللسان وذكر القلب، من يذكر الله بلسانه وهو مع ذلك قلبه حاضر متدبر متأمل خاشع، لأن بعض الناس يسبِّح وقلبه في وادٍ آخر، فما اجتمع فيه القلب والجوارح فهو أفضل الذكر، انظر إلى حديث عثمان رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)(١).

---

(١) رواه البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦).

الوقفة الثانية : التفاضل أيضًا يقع بتعدي النفع.

فبعض الأعمال الصالحة نفعها متعدٍ كالعلم الشرعي وتعليمه، شخص يتعبد وآخر يعلِّم أو يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فما تعدى نفعه إلى مسلمين وإلى الناس عمومًا من الأعمال الصالحة فهو أفضل مما اقتصر على صاحبه، وهذه هي المرتبة الرفيعة: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ فلذلك كان العلم من أفضل الأعمال الصالحة، وكان التعليم من أفضل الصدقات بل هو أفضلها، والدعوة إلى الله عز وجل هي من أجل الأعمال أفضل من الجهاد في سبيل الله سبحانه، والجهاد أفضل من صيام التطوع وقيام الليل لأن نفعه متعدٍ، وكلما عظم النفع كان العمل أفضل.

الوقفة الثالثة : في فضل الاستخارة.

الاستخارة تندب عند كل أمر يشكل في الدين أو الدنيا، أمر لا تدري هل تقدم عليه أو لا تقدم عليه! فعليك بالاستخارة، والواجبات لا تدخل في ذلك، لأنه يجب عملها.

والاستخارة أحيانًا يقصد بها أكثر من صلاة ركعتين والدعاء المعروف، قد يراد بها أحيانًا الدعاء بأن الله جلا وعلا يختار ما فيه الخير ، فأنت كلما قدمت على أمر ادع الله سبحانه وتعالى أن يجعل الخير أن يجعل لك الخير فيما يختاره، فلعل الاستخارة في هذه الجملة يقصد بها العموم وليس مجرد الصلاة المعروفة صلاة الاستخارة، قال: فما ندم من استخار الله تعالى.

كل ذلك يرجع إلى صدق العبد مع الله سبحانه.

الوقفة الرابعة : في قوله : الدعاء مفتاح كل خير.

الدعاء بقسميه: دعاء السؤال وكذلك دعاء العبادة، مفتاح كل خير، ومقصوده في هذه الجملة دعاء المسألة، فأنت إذا أقبلت على العبادة دعوت الله جل وعلا، إذا فرغت منها دعوت الله سبحانه، إذا أقبلت على أمور الدنيا فادعوا الله سبحانه، إذا وجدت فراغًا ادع الله وتعالى.

الدعاء لا يُستغنى عنه، ولا ينقطع حتى في الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ

رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فعليك بالاستكثار منه فإنه يجلب بإذن الله سبحانه وتعالى من الخشوع والرغبة فيها عند الله سبحانه وتعالى ما يعرفه كل من أكثر من الدعاء، نسأل الله عز وجل أن يشرح قلوبنا لذلك.

الوقفة الأخيرة: في أوقات الاجابة.

كل الأوقات التي تدعو الله سبحانه وتعالى أنت موعود بالإجابة، لكن في بعض الأوقات تعظم رجاء الإجابة، كأدبار الصلوات وآخر الليل، وعند الآذان وعند نزول المطر، قد تكلمنا على أوقات الإجابة في شرح كتاب "الدعاء من الكتاب والسنة "لسعيد بن وهف القحطاني رحمه الله تعالى.

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا وإياكم جميعًا لما يحب ويرضى.



(بعض ما يتعلق بالمكاسب)

قال رحمه الله تعالى: [وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ: فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إلَى اللهِ وَيَدْعُوَهُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ: (كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ)[١].

وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٢] عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إذَا انْقَطَعَ فَإِنَّهُ إنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ) .

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَقَالَ سُبْحَانَهُ. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾.

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمْعَةِ فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ.

وَلِهَذَا وَاللهُ أَعْلَم أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك)[٣] وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ فَالِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ وَاللَّجَأُ إلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ؛ بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ وَالسَّعْيُ فِيهِ إذَا

---

(١) رواه ومسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رض الله عنه.

(٢) رقم (٣٦٠٤) وابن حبان (٨٦٦) وضعفه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٧١٣) عن أبي أسيد رضي الله عنه.

سَعَى كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١) وَغَيْرُهُ: (مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلَّا مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ؟ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْتَ مُحْتَاجٌ إلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ إلَى نَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ مَرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنْ الدُّنْيَا فَانْتَظَمَهُ انْتِظَامًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ بِنَايَةٍ أَوْ حِرَاثَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِك فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ وَلَا أَعْلَم فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا لَكِنْ إذَا عَنَّ لِلْإِنْسَانِ جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرْ اللهَ تَعَالَى فِيهَا الِاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ فِيهَا مِنْ الْبَرَكَةِ مَا لَا يُحَاطُ بِهِ. ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ فَلَا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ.]

الشرح:

هذه الجمل وفيها فوائد كثيرة نقف مع بعضها في خمس وقفات.

الوقفة الأولى: في بيان أهم قواعد الكسب و طلب الرزق.

أهم شيء هذه القواعد:

أولًا: التوكل على الله سبحانه وتعالى والثقة بكفايته وحسن الظن به، فهذا أول سبب يبدأ به في طلب الرزق، يتوكل على الله عز وجل ويفوض أمره إلى الله سبحانه، لا يعتد بنفسه ويرى أن أهم شيء في طلب الرزق أن يستخدم ذكاءه وحنكته وتجاربه، فالأمور بيد الله ﷻ، رُب رجل ذكي لم يقدر على كسب ضروريات الحياة،

وآخر بليد والأرزاق فوقه كثيرة، الأمور بيد عز وجل فلابد للمسلم أن يتوكل على الله

---

(١) رواه البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦).

سبحانه، حديث عمر المشهور (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتروح بطانًا) (١)، ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ توكل مع بذل السبب لا كما يدعي بعض الناس من المتصوفة أنهم بقوة توكلهم لا يبذلون سببًا، والواقع أن هذا من الشيطان، بل لُوحظ على كثير منهم الاحتيال على الرزق بحيث لا يُشعر به ثم يدعي بعد ذلك التوكل.

فالتوكل القاعدة الكبرى في باب طلب المكاسب.

القاعدة الثانية: الدعاء.

اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى أن يدعو الله سبحانه وتعالى بالرزق، وأن يكون هذا الرزق حلالًا طيبًا وأن يكون نافعًا للشخص بحيث ينتفع به بدنه، وكذلك ينفق منه بما يعود عليه بالنفع في آخرته، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في كل صباح: (اللهم إني اسألك علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا ورزقًا طيبًا) (٢).

ومن الأدعية الجامعة: (اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني)، الشخص يسأل الله عز وجل الرزق الطيب كل يوم وكل صباح، وإذا خرج في طلب الرزق خرج متوكلًا ذاكرًا لله عز وجل جاعلًا أمر الدنيا أمر في اضطرار الاختيار، لا يجري بعد الدنيا مع استغنائه عنها، لكن حين يحتاج إلى أمور الدنيا يبذل هذه الأسباب العظيمة ثم بعد ذلك يبذل الأسباب الدنيوية.

القاعدة الثالثة من قواعد كسب الرزق إذا وجد أكثر من سبب ويريد أن يختار أحدهما فعليه أن

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤) وصححه الألباني والوادعي.

(٢) رواه ابن ماجه (٩٢٥) والنسائي (٩٩٣٠) وصححه الألباني والوادعي.

يستخير الله سبحانه وتعالى.

الاستخارة لها ثمرات عظيمة جدًّا والإنسان مهما بلغ عقله وتفكيره قد يحسن الظن بما فيه الضر، وقد يسيء الظن بما فيه الخير، فإذا استخار الله سبحانه وتعالى فما خاب من استخار.

ثم تأتي بعد ذلك الأخيرة من قواعد كسب الرزق وهي بذل السبب المباح.

لا يستعجل في بذل السبب حتى يرتكب الحرام ويظن أنه سيزاد في رزقه، وإنّما استعجل فابتلي بالحرام ولو صبر لجاءه الرزق من حلال دون أن يتعرض للحرام.

وذكر حديث (يسأل أحدكم رب حاجته ...) ليبين أهمية سؤال كل شيء حتى أدنى شيء، هذا الحديث مختلف فيه بعضهم حسنه وبعضهم ضعفه.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ اسأل الله عز وجل ما هو نافع لك في دينك ودنياك.

أيضًا بذل السبب قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وأيضًا حين يخرج من المسجد يقول: (اللهم إني اسألك من فضلك) ويدخل في ذلك الرزق الحلال ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أول ما يبدأ يسأل ربه جل وعلا، والله المستعان .

الوقفة الثانية : في حرص السلف على العمل لِيُعِفُّوا أنفسهم.

فلا يحتاج إلى سلطان ولا إلى غني ولا إلى شخص آخر فيبقى الشخص بعمله عزيزًا مستغنيًا لا يذل نفسه من جهة، ولا يتنازل عن دينه من جهة أخرى، فهناك أناس ضعفت أعمالهم فذلوا للمخلوق، وآخرون بذلوا دينهم ليحصلوا على الرزق، فإذا وجد للإنسان عمل يكتسب منه ضروريات الحياة فهذا أمر طيب، وقد جاء عن غير واحد من السلف بأسانيد صحيحة الحث على كسب الرزق الحلال والاستغناء عن ما في أيدي الناس.

ومن ذلك ما صح عن سفيان من أنه قال: "لولا مهنتي لتمندلوا بي".

وكان الصحابة رضي الله عنهم كلهم من ذوي الأعمال، هذا في الزراعة وهذا في التجارة، وهذا في كذا وكذا، وقد أُلِّف كتاب في الحِرف الذي كان يمارسها العلماء، وأنت تقرأ في تراجمهم فلان الزيات وفلان القصاب وفلان البزاز إلى غير ذلك، لكن ينبغي للشخص ألا يتعمق في الدنيا.

أنت طالب علم لا تتعمق في الدنيا كثيرًا، واقنع بما يكون سدادًا وكفافًا، فالقليل يُذل والكثير يشغل، والكفاف هو الخير كله، قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله تعالى بما آتاه، هذا هو معنى قوله: (ليأخذ المال بسخاوة نفسه) ولا يأخذ بهلع وطمع وجري وراء الدنيا ليلًا ونهارًا، فانظر إلى هذا المثال الحسن قال: يجعل المال بمنزلة الخلاء. أمَّا القلب فيبقى متفرغًا لعلاقة العبد بربه سبحانه، احرص على ذلك قدر الإمكان، فمن أدخل الدنيا إلى قلبه ابتلي بهذا الذي ذكره الشيخ.

الوقفة الثالثة : في الاضطرار إلى الأخذ من الصدقات والتبرعات من أن أجل التفرغ لفعل الخير أو من أجل التفرغ لطلب العلم.

إذا وَجد طالب العلم من الناس الطيبين من يبذل من ماله من أجل أن تتفرغ لطلب العلم فهذا أمر طيب، لا سيما في زماننا هذا الذي صار من الصعب أن الشخص يتفرغ لطلب العلم مع ممارسة أعمال الدنيا والله المستعان، لكن لابد أن يكون هذا من شخص كريم نفس لا يَمُن، وأيضًا لا يكون في ذلك ضرر على الشخص في دينه، ولا يكون عن طريق التسول.

الوقفة الرابعة : في الأخذ من الدنيا يحتاج إلى الحذر.

إذا احتجت إلى العمل في الدنيا فكن في غاية الحذر؛ فإن الدنيا مكّارة تجر شيئًا فشيئًا، وبعض الناس قد يبتلى بالفقر فيكتسب ولا يزال فقيرًا، وكلما جرى لم يزدد إلا فقرًا

حتى يفني عمره، وآخر تفتح له الدنيا فما يزال يجري من رزق إلى أكثر حتى ينسى العلم وينسى ربما بعض الواجبات، فالأخذ من الدنيا يحتاج إلى حذر، كما قال بعض السلف: أنت

محتاج إلى الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظامه انتظامًا وخذ منه ما تيسر، والله المستعان.

الوقفة الأخيرة: أن الشخص يحتاج في ما يكسب من أرزاق إلى سياسة يسيس نفسه بذلك.

فيحرص أولًا: على أن يختار - وبالذات طلبة العلم- من الأسباب أيسرها الأمور التي يبذل فيها السبب اليسير ويحصل على رزقه، هذا من جهة الأخذ بالسبب، لا يذهب إلى الأسباب التي تذهب الأوقات وتحتاج إلى تفكير كثير.

الأمر الثاني: حين يكتسب ما يسر الله جل وعلا له فعليه أن يعمل بهذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ بعض الناس إذا جاءه المال أصابه البذخ والترف والسرف ثم لا يلبث أن يعود فقيرًا يبحث عن الدنيا، فينبغي الحذر لا تسرف ولا تقتر.

وأيضًا من الأمور التي ينبغي أن يكون الشخص مسايسًا لنفسه بها: اغتنام الفرص مثل الأسواق الأسبوعية فهي طيبة، من تيسرت له التجارة الموسمية ففيها رزق طيب ويتيسر له التفرغ لطلب العلم في كثير من أوقاته، وقد ذكرنا أكثر من مرة أن أكثر الناس يوجد لديهم فراغ بعد كسب الرزق لكن لا يوفقون للتفرغ في هذه الأوقات لطلب العلم، وإلا أغلب الناس في العصر والمغرب وهكذا بعد العشاء عنده فراغ، لكن لا يوفق لطلب العلم إلا من وفقه الله تعالى، يذهب الوقت مع الجوالات ومع الأولاد ومع الحدائق وهكذا.

ولو فرغ الإنسان المنشغل في يومه ساعتين لطلب العلم لحصل على خير كثير.

نسأل الله جل وعلا أن يسهل لنا ولجميع المسلمين الخير.

****

(الكلام على الكتب)

قال رحمه الله تعالى: [وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ وَهُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنْ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ.

لَكِنَّ جِمَاعَ الْخَيْرِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى عِلْمًا وَمَا سِوَاهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا فَلَا يَكُونُ نَافِعًا؟ وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ. وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ. وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَسَائِرِ كَلَامِهِ. فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ أَنَّ هَذَا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَلَا مَعَ النَّاسِ إذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ.]

الشرح:

هذه الجمل لنا معها خمس وقفات

الأولى: في طريقة الابتداء في طلب العلم.

وهذا من المهم بمكان فإن الإنسان ينشأ في بلد، وهذا البلد له طريقته وأسلوبه في طلب العلم وفي اعتماد الكتب وربما أيضًا في المذهب، فالإنسان في بداية طلب العلم ينظر ما عليه أهل بلده، إن كان من الكتب والمذاهب المعتمدة فلا بأس أن يبدأ بها الناس عليه، ويتفهم أصول العلم على مدرسي بلده مع الحذر من أصحاب العقيدة الفاسدة، ويعتني بأصول العلم ولا يستعجل، فإن الإنسان إذا أتقن أصول العلم في أربع خمس سنوات تيسر له بعد ذلك من التمكن في العلم ما لا يتيسر لذلك الذي لم يتأصل في طلب العلم، ولم يفهم الأصول العقيدة واللغة وكذلك المصطلح وأصول الفقه وأصول التفسير إلى غير ذلك من الأصول التي هي كالقواعد يبنى عليها العلم.

ثم بعد ذلك يرحل في طلب العلم يتلقى عن غير أهل بلده، فإن الإنسان لا يستكمل العلم ولا طرق العلم ولا يحصل على أساليب العلم بسعة حتى يلتقي بأكثر من عالم، يستفيد من أسلوب هذا ويستفيد من تنبيهات هذا ويستفيد من سمت ذاك، فيجتمع له علم كبير مع أخلاق أهل العلم.

التنبيه الذي ذكره الشيخ في مسألة ما ينشأ عليه شخص في بلده؛ لأنه اذا لم يسر مع أهل بلده سيتصادم مع المجتمع ويصير وحيدًا، لكن مع ذلك لا يعني هذا التنازل عن العقيدة أو الدراسة عند المنحرفين عقديًا فهذا خطر عظيم.

الوقفة الثانية: في الكتب وترتيبها.

وهذا من المهم بمكان سواء للمطالعة أو للدراسة، فيبدأ بمفاتيح العلم في جميع الفنون، ثم بعد ذلك يقرأ ما فوقه من المستويات ويتدرج إلى أن يجرد المطولات، فمن أهم الكتب في العقيدة في توحيد الألوهية "الأصول الثلاثة" وكذلك و"كشف الشبهات" "والقواعد الأربع" وهكذا "تطهير الاعتقاد" و"كتاب التوحيد للنجدي" أيضًا وما أشبه ذلك من الكتب، مع شروح ما تقدم ذكره.

ومن الكتب في توحيد الأسماء والصفات: "اللامية" "والحائية"، وشرحهما، وهكذا "لمعة الاعتقاد" و"الواسطية" وهو من أنفع الكتب ، "الطحاوية" وشروحها وأفضلها شرح ابن أبي العز، ومن أهم وأفضل الكتب شرح السنة للالكائي في العقيدة.

وأيضًا في الفقه: يبدأ بـ "صفة الصلاة والوضوء" ثم "عمدة الأحكام" للمقدسي "وبلوغ المرام" وهكذا "المنتقى" وإن احتاج أن يدرس الكتب التي هي متون فعليهم بمتون المتقدمين كمتن "الخرقي" "والمزني" وما أشبه ذلك من متقدمي أهل العلم والسنة، فإن المتأخرين أكثروا من الفروع والإشكالات بما يشتت ذهن الطالب.

وكذلك التفسير عليه أولًا بتفسير الفاتحة وقصار المقصر ،ثم بعد ذلك يعتني بالتفاسير الميسرة

كتفسير العلامة السعدي، وأيضًا أرفع مستوى منه تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير وما أشبه ذلك.

وغالب كتب التفسير المتقدمة فيها دخن من جهة العقيدة، وأفضل كتب هو تفسير الطبري وتفسير ابن كثير وتفسير السعدي وتفسير السمعاني، وتفسير أبي طالب المكي، وما عدا هذه الخمسة فينبغي السؤال عنها قبل القراءة فيها.

كذلك في الحديث يقرأ "الأربعين النووية"، ثم بعد ذلك يقرأ مختصرًا لصحيح البخاري مثلًا، ثم يقرأ صحيح البخاري وكذلك صحيح مسلم، والأمهات الست عمومًا، مسند أحمد لمن قوي عزمه وهمته، الغالب على كتب الحديث أنها كتب طيبة وخالية من شوائب المعتقد وعامة أهل الحديث على عقيدة صافية.

وكذلك يقرأ في مصطلح الحديث وكذلك أصول الفقه واللغة.

ويحذر في أصول الفقه أن يلج في كتب أهل الكلام،كالمستصفى للغزالي، وكتب الرازي، وغيرهما من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة، وغالب كتب أصول الفقه ألفها المبتدعة فكن منها على حذر حتى تميز خيرها من شرها.

ينبغي أن يعتنى بالرسالة للشافعي، ثم بعد ذلك يقرأ من أصول الفقه التي ألفها الحنابلة كالسمعاني وابن قدامة وغيرهما فإنهم أصفى عقيدة من بقية المذاهب.

والذي ننصح به الشخص أن يسير على طريقة أهل الحديث، فإن أبى إلا أن يتمذهب فعليه بالحنبلي، لأن الحنابلة أصفى عقيدة.

وأما بقية المذاهب فإنهم وإن كان عندهم شيء من التحقيق في الفقه، لكن بسبب أن غالب أصحاب هذه المذاهب أصحاب عقيدة فاسدة خالفوا أئمة المذاهب في عقيدتهم، فالشخص لا يزال ينجر وراء هذه المذاهب حتى ينحرف في عقيدته والعياذ بالله، كما حصل لكثير منهم، وهذا باب واسع بارك الله فيكم .

الوقفة الرابعة: أن الشخص الذي يرغب في التفرغ للعلم ولمطالعة الكتب عليه أن يتقلل من الدنيا قدر المستطاع.

علوم الدنيا لا سيما في عصرنا انفتحت؛ انفتحت انفتاحًا عجيبًا وصار الطلبة في المدارس يتلقون أنواع العلوم الدنيوية وربما يخرجون بلا شيء، ولو أنهم ركزوا على علوم الدين، ثم بعد ذلك في علوم الدنيا يكفي الشخص أن يعتني بالعلم الذي سيتخصص فيه وليس بحاجة إلى بقية العلوم، لكن شتتوا الأذهان بهذه العلوم الدنيوية، الشخص يحتاج أن يدرس حتى يخرج مثلا طبيبًا إلى خمسة وعشرين سنة أو إلى عشرين سنة وكان بإمكانه أن يدرس الابتدائي ويكفي في الابتدائي خمس سنوات، ثم بعد ذلك يتخصص في الطب مع الحفاظ على العلوم الشرعية، لا يصل عمره إلى خمسة وعشرين سنة مثلًا إلا وهو من كبار الأطباء، وهكذا يقال في سائر العلوم.

الوقفة الخامسة: وهي في أهمية فهم كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

فإن العلم هو كلام الله عز وجل وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وهو كلام مبارك وفيه من العلم الغزير ما لا يخفى، لكن عليك بالتفهم والتدبر والتأمل والاستخارة والاستعانة بالله عز وجل وكثرة الدعاء أن يكون ما تفهمه وما ترجحه هو مراد الله سبحانه وتعالى.

نسأل الله عز وجل من فضله.



(أصول العلم)

قال: [وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ إذَا قَامَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (١).

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: (يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)(٢).

وَأَمَّا وَصْفُ " الْكُتُبِ وَالْمُصَنِّفِينَ " فَقَدْ سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ. وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الْمُبَوَّبَةِ كِتَابٌ أَنْفَعَ مِنْ "صَحِيحِ مُحَمَّدِ بْنِ إسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ" لَكِنْ هُوَ وَحْدَهُ لَا يَقُومُ بِأُصُولِ الْعِلْمِ.

وَلَا يَقُومُ بِتَمَامِ الْمَقْصُودِ لِلْمُتَبَحِّرِ فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ إذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحَادِيثَ أُخَرَ وَكَلَامُ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ أَوْعَبَتْ الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إيعَابًا فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ: (أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؟ فَمَاذَا تُغْنِي

(١) تقدم.

(٢) رواه مسلم (٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

عَنْهُمْ؟)(١).

فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَى وَالسَّدَادَ وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا؟ وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَوَاتُهُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ.]

الشرح:

ولنا مع هذه الجمل خمس وقفات

الأولى: في أهمية حفظ الأصول والقواعد.

سواء كان المقصود من أصول الآيات والأحاديث التي هي أصول العلم، أو الأصول والقواعد التي وضعت للعلم في كل فن، فهذه هي الأصول التي من لم يفهم الأصول حرم الوصول وتعثر في كثير من المسائل، فعليك بحفظ وفهم أصول العلم، وهذا كما تقدم الكلام عليه دراسة أصول العلم الذي يسمى بعلوم الآلة، ثم بعد ذلك إذا جئت إلى أبواب الفقه مثلًا في باب الطهارة هناك عدد من الأحاديث هي أصول باب الطهارة اعتنِ بها،

وهكذا في العقيدة، في كل باب هناك أدلة تعتبر هي أصول هذا الباب، فإذا اعتنيت بذلك اختصرت الوقت وسهل عليك فهم ما عدا ذلك، والله المستعان.

على سبيل المثال في باب النيات والمقاصد عندك حديث عمر (إنّما الأعمال بالنيات)(٢) أصل في هذا الباب، ويستفيد الشخص من "الأربعين النووية" فإنه جعل كل حديث أصلًا لباب من الأبواب، وقد ألَّف بعض المعاصرين كتابًا فيما قيل فيه هذا الحديث أصل أو قاعدة أو ما أشبه ذلك.

الوقفة الثانية: للاستمرار في الدعاء.

---

(١) رواه أحمد (٢٤٠٣٦) وغيره عن عوف بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني والوادعي.

(٢) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) عن عمر رضي الله عنه.

ولا يعجل الشخص، يبذل الأسباب الحسية، ويبذل السبب الأكبر وهو الدعاء والاقبال على الله سبحانه وتعالى، والإخبات بين يديه فإن الله جل وعلا، يفتح على العبد، العلم والخير هو عطاء الله عز وجل فعليك أن تكثر من سؤال هذه الأمور ممن يملكها سبحانه وتعالى، (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) نسأل الله أن يهدينا إلى كل خير ، وقد تقدم الكلام على الدعاء أكثر من مرة.

الوقفة الثالثة : في أصح الكتب بعد القرآن الكريم.

يعتني الشخص بالقرآن الكريم وتفسيره كثيرًا ففيه علم غزير لا سيما في العقيدة، ثم كتب السنة يعتني بالصحيحين صحيح البخاري وصحيح مسلم حفظًا وفهمًا وتعليقًا واختصارًا وإضافة، يبذل من الجهد حول هذين الكتابين ما يجعله ملمًا بأبوابها، يتفهم تراجم الأئمة، ولا يكفي الاقتصار على الصحيحين، لكن الغالب أن من اعتنى بالأمهات الست وسنن الدارمي ومسند أحمد أنه لا يفوته إلا النزر اليسير .

ونسأل الله تعالى العون والسلامة.

الوقفة الرابعة : في كيفية التعامل مع تزاحم العلوم والدروس والكتب.

العلم كالبحر، لكن كما تقدم الشخص يبدأ بعلوم الآلة.

وهكذا في الحفظ يبدأ بالقرآن الكريم، ثم بمتن الحديث عمدة الأحكام أو رياض الصالحين، لا يبدأ بحفظ المتون التي هي منظومات أو نثر، يبدأ أولًا بكلام الله عز وجل وكلام رسوله حتى يكون صاحب دليل.

ثم بعد ذلك لك أن تحفظ من المنظومات والمتون ما تستعين به على طلب العلم.

فيعتني طالب العلم أولًا بعلوم الآلة ولا يقدم عليها العلوم الأخرى عند التزاحم، لا يقدم شرح البخاري مثلًا، يحرص على علوم الآلة لأنها أصول وقواعد يبنى عليها العلم، ثم بعد ذلك يعتني ابتداءً بما يتعلق بتجويد كلام الله عز وجل وبالعقيدة، يبدأ بهذين الفنين ولا

يزد عليهما، فإذا وفق لفهم العقيدة الصحيحة وفهم التلاوة، هنا يبدأ بعد ذلك بعلوم اللغة يأخذ من النحو مثلًا الآجرومية، ويأخذ أيضًا في المصطلح مثلًا البيقونية، يأخذ المستوى الأول من بقية الفنون ، ثم بعد ذلك يأخذ المستوى الثاني يترقى ، وهذا أفضل من الذي يتخصص في فن واحد يتبحر في اللغة مثلًا، أو في المصطلح أو في أصول الفقه، لأن الشخص لا يدري ما يعرض له، فخذ من العلوم بعد فهم العقيدة المستوى الأول وإن يسر الله جل وعلا لك الاستمرار خذ المستوى الثاني وهكذا.

الوقفة الخامسة والأخيرة: ينبغي الحرص على الاستفادة من الكتب ومن العلم لكن مع الحذر من كتب المبتدعة.

وهذا مما فاتنا ذكره في الفصل السابق نذكره في هذا الفصل احذر كل الحذر من الدراسة والمطالعة في كتب أهل البدع، هناك أئمة جبال كبار زلوا وحصل لهم من الخطأ في العقيدة ما لا يتوقع منهم، السبب في ذلك أنهم درسوا عند أهل البدع، فلأن تبقى معتكفًا على كتب السنة وأهل السنة وأشرطتهم خير من أن تدرس عند أهل البدع.

وبعض الناس يقول سنحذر. الغالب أن الطالب يقلد شيخه ويتأثر به، ولكن إذا كان قد تمكن من العلم واحتاج إلى باب من أبواب العلم عند المبتدعة فلا بأس أن يدرس، وإلا فمن رسخت في قلبه العقيدة الفاسدة قَل أن يتوب.

رأينا بعض الأشخاص من الدول التي عندها عقائد فاسدة في أفريقيا مثلًا، وهكذا في بعض المشارقة، مَن يأتي للدراسة في الجامعة الإسلامية في المدينة مثلًا، ويبقى أربع سنوات يسمع العقيدة الصحيحة، ويكتم ما في نفسه فإذا رجع إلى بلده أظهر العقيدة الفاسدة، لماذا؟ لم يتمكن الخير من قلبه لأن قلبه قد شغل بالعقيدة الفاسدة فالحذر كل الحذر.

انظر إلى اليهود عندهم التوراة وجاءه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وعرفوا أنه الحق، لكن

لرسوخ العقيدة الفاسدة في قلوبهم لم يستفيدوا من هذا العلم ومن هذا الخير.

فنكرر ونقول الحذر الحذر من الدراسة عند أهل البدع.

وأيضًا الحذر من الدراسة عند الطائشين من أهل السنة، هناك من أهل السنة من عنده شيء من العلم، لكن لا يقتدي بالعلماء الكبار ولا نظر في هديهم وسمتهم وأخلاقهم.

عنده علم وعنده طيش، فهذا يربي طلاب طائشين مثله، فمثل هذا ينبغي أن تتجنب الدراسة عنده وعليك بكبار العلماء لتستفيد العلم والهدي والسمت والأخلاق، وتكون على سمت أهل العلم، وتسير بسير أهل العلم وتستفيد من حكمة أهل العلم وما أشبه ذلك.

على كلٍّ بارك الله فيكم هذا باب واسع، وهذه الرسالة كانت تحتاج إلى وقت أوسع لكن خير كثير أننا مررنا عليها مرور الكرام.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، اللهم أنا نسألك اللهم الهدى والسداد، اللهم ألهمنا رشدنا وقنا شر أنفسنا وثبتنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

****

الفهارس

